وما سواها (374)

البشـــــر وما نشـــــر!!(1)

د. صادق السامرائي- الطب النفساني، العراق / أمريكا

البشر مخلوق عجيب في نفسه وعقله وروحه وقلبه , والتفاعلات الناجمة عن تلك العناصر الناشطة فيه , من الصعب الإستدلال عليها

البشر هو البشر منذ الأزل , وفي أي مكان أو زمان حل أو نزل , ولا يمكن إنكار الإرادة البشرية التي هي ذات نسبة حيوانية كبيرة , بل أن في حقيقة السلوك البشري تتمثل الحيوانية في أكثر من ثلثيه , وما تبقى يمكنه أن يصل إليه بعد أن تهدأ نوازعه وتتحقق رغباته الدونية

العربية لغة تمكنت من إدراك هذه المعادلة السلوكية فسمته "بشر" ولو جردت الكلمة من حرفها الأول لتحولت إلى "شر" , وهذا يوضح بأن ثلثي الكيان البشري يختزن شرا

من أخطر ما يخدع البشر به نفسه هو الإدّعاء بحالة يوظفها لتسويقه , فيجعل من شروره خيرات ومسلمات معروف , وصدق وإخلاص للمثل العليا والقيم السامية

البشر مخلوق عجيب في نفسه وعقله وروحه وقلبه , والتفاعلات الناجمة عن تلك العناصر الناشطة فيه , من الصعب الإستدلال عليها.

والغوص في دنيا البشر مغامرة فكرية وثقافية وعلمية , ذات صعوبات وتحديات هائلة.

وهذه إقترابات ذات محاولات إدراكية لمعرفة آليات سلوكه , وما ستؤول إليه مسيرته فوق التراب.

أولا: بشرية البشر!!

البشر هو البشر منذ الأزل , وفي أي مكان أو زمان حل أو نزل , ولا يمكن إنكار الإرادة البشرية التي هي ذات نسبة حيوانية كبيرة , بل أن في حقيقة السلوك البشري تتمثل الحيوانية في أكثر من ثلثيه , وما تبقى يمكنه أن يصل إليه بعد أن تهدأ نوازعه وتتحقق رغباته الدونية.

ولا يختلف البشر عن أي بشر بما شئت من التوصيفات , فالحيوان يزأر في أعماق البشر مهما علا شأنه وإزداد علمه , فأنه يكنز نسبة منها فاعلة فيه ومؤثرة بسلوكه.

والعربية لغة تمكنت من إدراك هذه المعادلة السلوكية فسمته "بشر" ولو جردت الكلمة من حرفها الأول لتحولت إلى "شر" , وهذا يوضح بأن ثلثي الكيان البشري يختزن شرا , فالبشر ثلثية شر وثلث أقل من ذلك ووفق درجات وقدرات تمليها التجارب وآليات إشباع الرغبات.

قد يغضب البشر عندما يواجَه بحقيقة ذاته وسلوكه , لأنه تمكن من تضليل نفسه وخداعها على أنه المخلوق القويم الرحيم , الذي يتبدى رأفة وعدلا وكرما وخدمة للآخرين , بل أنه القدوة والمثال في الأخلاق والسلوك , وإياك إياك أن تقول للبشر " على عينك حاجب"!!

ومن أخطر ما يخدع البشر به نفسه هو الإدّعاء بحالة يوظفها لتسويقه , فيجعل من شروره خيرات ومسلمات معروف , وصدق وإخلاص للمثل العليا والقيم السامية , وبهذا يكون التعبير عن شره في ذروته وأقصاه , فيخلع باءه ويتزيا بمظاهر الحالة التي يتبع أو يسخّر لتمرير شروره ونوازعه.

وما يرى ربما لا يساهم في تهذيب نفسه وتحجيم شروره , وإنما يطلق مطموراته ويدفعه لتسويغ رغباته وتطلعاته السافرة , ويمنعه من رؤية الحقائق والوقائع كما هي , بل كما يتصورها ويريدها أن تبدو وتكون.

ذلك أنه قد تنفّق أي صار يمتلك مناظير نفقية تحجب عنه رؤية ما حوله بوضوح , كالحصان الذي وضع على عينيه حجاب فلا يرى إلا ما هو أمامه.

وتلك معضلة السلوك البشري التي عجزت عن تهذيبها وتطويعها العقائد , والتوجهات الأخلاقية والمحاولات الوعظية والتبصيرية , لأن البشر لا يمكنه بسهولة أن يقتل الحيوان الكامن فيه , وبدون هذا الحيوان ربما تفقد الحياة حرارتها وينتفي وجودها , فما ينطبق على مملكة الحيوان ينطبق على مملكة البشر الذي يبدو كإنسان.

فهل سنحاول أن نهذب الحيوان الذي فينا لكي نتنعم بشيئ من طعم الإنسانية؟!!

ثانيا: ورقة التوت البشرية!!

تتعرى البشرية وتكشف عن عوراتها في زمن الأوبئة والحروب , ولا يمكنها أثناءهما أن تتستر على ما عندها من الطباع السلوكية التي كانت تقنّعها بما يُحْجِبُ رؤيتها.

البشرية تطلق العنان لأنانيتها وعدوانيتها , وخصوصا في المجتمعات المتحررة , التي أمعن البشر فيها بالذاتية واللذائذية والتعبد في محراب المادية وصوامع الربحية , فأصبح مقياس النجاح مرهون بمعيار دولاري يحدد القيمة والدور.

ماذا يحصل؟!

فايروس لا يُرى بالعين المجردة يزعزع أركان الثوابت السلوكية التي سادت بين البشر , وأدّت إلى تنامي عدد أصحاب البلايين بسرعة قياسية , وتزايد عدد الفقراء والمعدمين بوتيرة أسرع.

مئات الملايين تقاسي من الجوع والحرمان والقهر والإمتهان , وقلة في ذروة التمتع بالحياة وطيب الطعام , حتى إنتفخت الأبدان , وفاقت في حجمها قدرات السعي فوق التراب.

بشر متخوم وبشر محروم!!

العالم البشري يتعرى , وتتأكد أقواله المنافقة المضللة المخادعة , التي تريد أن تعمي أبصار الآخرين لكي تستحوذ على وجودهم , وتصادر مصيرهم.

أقوال ذوي السلطان والذين يتاجرون بالقيم والمعايير الإنسانية , ويحسبونها شعارات ولافتات يعلّقونها أمام أنظار الآخرين , ويريدون منهم العمل بها وهم من أشد الناكرين لها.

إفعلوا ما نقوله لكم ولا تفعلوا ما نفعل!!

العالم العاري كشف عن موت الضمير , وفقدان الحياء , وكراهية البشر للبشر , الذي كشر عن عنصريته وعرقيته وطائفيته وتميزه العنصري , ودعواته المقيتة للدمار والخراب وسفك الدماء.

العالم يتعرى , والمخلوقات تحدق بحيرة وإندهاش , وتتساءل عن العامل الذي جعل العالم يخلع ملابسه , ويتحرر من ثيابه المبهرجة المرصعة بالويلات والتداعيات والآثام والخطايا الصادعات.

عالم بلا حياء!!

عالم بلا ضمير!!

وصاخة كورونا زعزعت أركان الوجود البشري , ووضعته أمام مصيره الترابي , وأعلمته بأن الجميع سواء!!

فهل سنرعوي , أم سيتولى النسيان حكاية الإنسان مع الإنسان؟!!

ثالثا: سقر البشرية!!

إن أرقى مرحلة في حياة البشرية برغم ما رافقها من تداعيات وويلات , هي المرحلة التي بدأت بعد الحرب العالمية الثانية , ويُخشى أن تنتهي بعد 2025!!

فالحياة البشرية موحشة شرسة دموية غابية الطباع , ولأول مرة في التأريخ إتفقت الدول على تأسيس عصبة الأمم التي تطورت إلى منظمة الأمم المتحدة ومجلس أمنها , للحفاظ على الأمن والسلام الأرضي.

قد يستغرب القارئ مما تقدم , لكن المطلعين على تأريخ البشرية يعرفون أن العقود السبعة الأخيرة من حياتنا فوق التراب , هي الأرقى والأكثر إنسانية على مر العصور.

فترة ترافقت مع إكتشافات وإختراعات نقلت البشرية إلى آفاق الحياة المعاصرة , التي لم يعش نسبة ضئيلة منها أعظم الملوك والأباطرة من قبل.

نعم إن البشرية كانت تعيش في جنات الأرض , ومروج الإنسانية , وتبدو اليوم وكأنها على شفا سقر الوجود الأرضي الذي سيأخذها إلى جحيمات الوعيد.

فسقر الأرض معناه أن يندلع ما تمتلكه من أسلحة دمار شاملة فتاكة , وتنطلق من مكامنها الصواريخ

تتعرى البشرية وتكشف عن عوراتها في زمن الأوبئة والحروب , ولا يمكنها أثناءهما أن تتستر على ما عندها من الطباع السلوكية التي كانت تقنّعها بما يُحْجِبُ رؤيتها

فايروس لا يُرى بالعين المجردة يزعزع أركان الثوابت السلوكية التي سادت بين البشر , وأدّت إلى تنامي عدد أصحاب البلايين بسرعة قياسية , وتزايد عدد الفقراء والمعدمين بوتيرة أسرع

العالم العاري كشف عن موت الضمير , وفقدان الحياء , وكراهية البشر للبشر , الذي كشر عن عنصريته وعرقيته وطائفيته وتميزه العنصري , ودعواته المقيتة للدمار والخراب وسفك الدماء.

إن أرقى مرحلة في حياة البشرية برغم ما رافقها من تداعيات وويلات , هي المرحلة التي بدأت بعد الحرب العالمية الثانية , ويُخشى أن تنتهي بعد 2025!!

نعم إن البشرية كانت تعيش في جنات الأرض , ومروج الإنسانية , وتبدو اليوم وكأنها على شفا سقر الوجود الأرضي الذي سيأخذها إلى جحيمات الوعيد

التوحش البشري سيكشر عن أنيابه وسينشب مخالبه في بدن الضعفاء , الذين توهموا بأن الحياة نزهة في حدائق الأمن والأمان والرحمة والألفة

الفجائعية والقنابل الإفنائية , وتحوم فوق خلق الله أبابيل الثبور والهلاك الحتمي المبين التي تلقي بأحجاره النووية على البشرية , فتحيلها إلى نيران ملتهبة ودخان يكنز رائحة الأبدان المشوية.

ويُخشى أن تكون البداية قد تأسست وتأكدت بصولة الكورونا التي زعزعت أركان الحياة في بقاع الأرض كافة , وأصابتها بشلل مبيد.

التوحش البشري سيكشر عن أنيابه وسينشب مخالبه في بدن الضعفاء , الذين توهموا بأن الحياة نزهة في حدائق الأمن والأمان والرحمة والألفة .

فما هي المسافة الزمنية بين النار والماء , بين الرماد والدخان , بين الهشيم والحدائق الغناء , بين الإنسان والوحش الذي يزأر في دنياه؟

قد نرى ما قد نرى , لكن المسير نحو الهاوية يبدو أكثر تسارعا مما نتصور , وأن الأرض تريد التعبير عن إرادتها وطبخ مخلوقاتها في تنورها اللهاب , وعلى المخلوقات أن تكون سجيرها المستطاب.

فهل أن هذا نوع من الهذربة , أم أنه لسان حال واقع مبيد؟!!

رابعا: البشرية تطفئ أنوارها!!

من الملاحظات المتكررة في مسيرة البشرية أنها تطفئ أنوارها المعرفية بأنواعها , إبتداءً من أرسطو وما قبله وما بعده وحتى اليوم.

وفي مجتمعاتنا عانى العلماء والمتنورون من محن قاسية ونهايات مروعة , بسبب آرائهم وعلومهم ومعارفهم الواسعة.

أقول هذا وأنا أتأمل محنة إبن جرير الطبري الذي نقرأ له ونذكره بتفاسيره وشروحاته ومؤرخاته الثرية , وننسى أنه تعرض لمحنة مروعة أدت به إلى الموت بقسوة وإذلال, وهو في منتصف العقد التاسع من العمر , حيث تم قذفه بالحجارة التي أغلقت باب داره ومُنع من الخروج والإتصال بالناس حتى مات جوعا وقهرا وعطشا.

ومن أمثاله العديد من العلماء وجهابذة الفكر الذين تم القضاء عليهم بآليات متوحشة عدوانية إنتقامية لئيمة , ساهم بها عامة الناس المنومين والمتحركين كالقطيع تحت إمرة دجال مخادع ومضلل , يدّعي ما يدّعيه من المقامات والقدرات , وهو من ذوي العاهات النفسية والسلوكية , ولديه القدرة على مخاطبة أمارة السوء الكامنة بالبشر الذي يتبعه ويدين بالولاء له.

وهذه الملاحظة المتكررة تشير إلى علة مطمورة في أعماق البشر , ويمكن إيقاظها وتوظيفها لتحقيق المشاريع الرغبوية التي قد لا تخطر على بال.

أي أن البشر يكنز ميلا للعدوان ولا يعنيه مقام المعتدى عليه , بل أن العدوانية تتناسب طرديا مع مقام الهدف المُعتدى عليه , وتزداد شراستها كلما كان الشخص المستهدف صاحب إنجازات وقوة مهما كان نوعها.

ولهذا يتعرض البارزون والمشهورون إلى أبشع أنواع الإعتداء والإنتقام , والأمثلة عديدة ولا تحصى , ويمكن للقارئ أن يستحضر ما يريد منها.

ولو درسنا حياة الذين تتردد أسماؤهم ونفخر بإنجازاتهم ونتباهى , سنكتشف أنهم قد كابدوا المحن والويلات من قبل مجتمعاتهم , ومن الذين يتطفلون على الكراسي.

ومن الصعب تفسير هذا السلوك المأساوي الإمتهاني الذي تكرره البشرية في غرب الدينا وشرقها.

فالبشرية تبخس حق أفذاذها في حياتهم وتمجدهم بعد مماتهم , وهم الذين يمضون حياتهم في شقاء وعناء وقلق ومجالدة وتحدي , وإصرار مطلق على التعبير عن أفكارهم ورؤاهم , ولا يعنيهم ما يلحق بهم من الضرر.

وبهؤلاء تتطور البشرية , وبهم وصلت إلى ما هي عليه اليوم , لكن نكران دورهم هو السائد , وما يكون قائما بسبب إبداعاتهم يفقد قيمته ويغيبهم.

في مجتمعاتنا عانى العلماء والمتنورون من محن قاسية ونهايات مروعة , بسبب آرائهم وعلومهم ومعارفهم الواسعة. أقول هذا وأنا أتأمل محنة إبن جرير الطبري الذي نقرأ له ونذكره بتفاسيره وشروحاته ومؤرخاته الثرية

أن البشر يكنز ميلا للعدوان ولا يعنيه مقام المعتدى عليه , بل أن العدوانية تتناسب طرديا مع مقام الهدف المُعتدى عليه , وتزداد شراستها كلما كان الشخص المستهدف صاحب إنجازات وقوة مهما كان نوعها.

لو درسنا حياة الذين تتردد أسماؤهم ونفخر بإنجازاتهم ونتباهى , سنكتشف أنهم قد كابدوا المحن والويلات من قبل مجتمعاتهم , ومن الذين يتطفلون على الكراسي

البشرية تبخس حق أفذاذها في حياتهم وتمجدهم بعد مماتهم , وهم الذين يمضون حياتهم في شقاء وعناء وقلق ومجالدة وتحدي , وإصرار مطلق على التعبير عن أفكارهم ورؤاهم , ولا يعنيهم ما يلحق بهم من الضرر

وفقا لما نعرفه عن الدماغ , فأن ما يدور فيه عبارة عن دوائر كُهربية تهيمن وتسيطر على الإستجابات المتصلة بها , ولا يمكنها أن تسمح بنمو دوائر أخرى مناهضة لكينونتها الفاعلة فيه

فعلى سبيل المثال , نحن نتمتع بالمخترعات وما أوجدته عقول الآلاف من المبدعين والمخترعين , لكننا لا نعرف أسماءهم , ولا نستغني عما قدموه لنا من إنجازات معاصرة.

ولا يمكن لبشر معاصر أن يتخيل عناء جهابذة العلوم والمعارف ومكابداتهم في تلك الحقب الزمنية التي عاشوها , وكل ما فيها صعب وعسير لكنهم إنتصروا على الحواجز والعقبات , وقدموا ما هو أصيل ورائع ومثير , فاكتشفوا واخترعوا , وأرغموا البشرية العمياء على الخطو إلى أنوار العصور المنورة بمعارفهم الوهاجة.

ولا بد من ذكر هذه القصة التي حصلت معي ذات يوم في القرن الماضي , عندما ترشحت وزميلي للتدريب مع أحد العلماء الأفذاذ المشاهير , وفي اليوم المقرر لبدء التدريب ذهبت معه وطلب مني ان أكون معه في سيارته , وعندما دخلنا المكان الذي سنتدرب فيه معه , طالعتنا صورة كبيرة زيتية وهي بورتريت لذلك العالم.

فثارت ثائرة زميلي وإستشاط غضبا وراح يدمدم بكلمات سيئة , وهو يقول : " لن أتدرب مع هذا الذي يحسب نفسه شيئا ما , ويضع صورة لنفسه بهذا الحجم على الحائط"!!

وأضاف: لن أتدرب ....!!

وترك المكان وطلب مني أن أغادر معه , فرفضت وقلت سأجد وسيلة للعودة إلى المستشفى , وإحترت في موقفه آنذاك , فذلك العالم له إسهاماته الكبرى في ميادين الإختصاص , وألفت عن نظرياته مئات الكتب وعشرات الآلاف من المقالات , لكنه حسبه لا شيئ ولا قيمة له لأنه وضع صورته الكبيرة عند مدخل مكتبه.

سلوك زميلي يفسر أننا قد ننقض على البارزين من هفوة بسيطة أو رأي ما نراه كما نرى ونتصور , فنلغي إنجازاته وإسهاماته.

وهذا ما حصل للعديد من العلماء في مسيرة البشرية على مر العصور.

خامسا: الأوهام البشرية ضرورات بقائية!!

البشر لا يمكنه البقاء والتواصل من غير أوهام تتملكه وتهيمن على وعيه الفردي والجمعي , وبدون هذه الأوهام ينتفي الوجود البشري , وتندحر الإرادة وتغيب الحياة!!

الأوهام تصورات راسخة لا يمكن زعزعتها وزحزحتها مهما حاولنا , لأنها قد تمكنت من الدماغ , وأوجدت دوائرها العُصيبية الشديدة الدوران والتعزيز والتقوية والإمكان.

ووفقا لما نعرفه عن الدماغ , فأن ما يدور فيه عبارة عن دوائر عُصيبية تهيمن وتسيطر على الإستجابات المتصلة بها , ولا يمكنها أن تسمح بنمو دوائر أخرى مناهضة لكينونتها الفاعلة فيه.

اي أن البشر مملوك من قبل الأوهام القابضة على وعيه ومداركه , وبهذا فهو مُستعبد ولا يعرف الحرية , التي هي في حقيقتها القدرة على التعبير عن أوهامه.

ومن الأوهام الأولية والراسخة في الدماغ المعتقدات بأنواعها , ومنذ بدء الخليقة والبشر مرهون بها وفاعل من أجلها وموجود متحرك بسببها , فهو يذود عنها ويحتفظ بها ويصونها , ولا تعنيه حياته بدونها , ولهذا فأن أي إقتراب منها يتشبث بإثارة عواطف ومشاعر عدوانية إستفزازية لا تبقي ولا تذر.

فلو أخذنا المعتقدات التحزبية لوجدناها عبارة عن أوهام مترسخة ومتعززة , بآليات تكرارية وتفاعلية ذات طاقات إنفعالية عالية وقاسية , وكذلك الأصوليات القابعة في الوعي الفردي والجمعي.

فالبشر يعيش في أوهامه ويتلذذ بها ويشعر بالطمأنينة لوجودها وترسخها فيه , وهو مخلوق متوهم ويستلطف أوهامه , وأي زعزعة للمنظومة الوهمية تتسبب بإضطرابات سلوكية خطيرة , تدفع إلى تداعيات مريرة.

فالقول بإعمال العقل في المعتقدات أيا كانت , نوع من الهذيان والعدوان على البشر الحيران الممرغ بأوهامه , والغاطس في تصوراته التي تفصله عن الواقع الترابي الذي يعيش فيه

لو أخذنا المعتقدات التحزبية لوجدناها عبارة عن أوهام مترسخة ومتعززة , بآليات تكرارية وتفاعلية ذات طاقات إنفعالية عالية وقاسية , وكذلك الأصوليات القابعة في الوعي الفردي والجمعي

البشر يعيش في أوهامه ويتلذذ بها ويشعر بالطمأنينة لوجودها وترسخها فيه , وهو مخلوق متوهم ويستلطف أوهامه , وأي زعزعة للمنظومة الوهمية تتسبب بإضطرابات سلوكية خطيرة , تدفع إلى تداعيات مريرة

القول بإعمال العقل في المعتقدات أيا كانت , نوع من الهذيان والعدوان على البشر الحيران الممرغ بأوهامه , والغاطس في تصوراته التي تفصله عن الواقع الترابي الذي يعيش فيه

إن منهج إقحام العقل بما لا يصح ويصلح , أدى إلى إنشاء الأصوليات وتعزيز الدوغماتيات التي تحتكر الحقيقة المطلقة وتنسف ما هو نسبي ومحكوم بإرادة الدوران

البشرية إنطلقت بمشوارها الحضاري , الذي قطعت شوطا كبيرا منه , منذ بدايات النصف الثاني من القرن العشرين , أما قبل ذلك التأريخ فأنها كانت تعيش في عصور همجية مدثرة بالجهل والأمية والعدوانية الشرسة المدمرة , وتتطاحن بالحروب وتبيدها الأوبئة والأمراض والعاديات الطبيعية

بأوهامه , والغاطس في تصوراته التي تفصله عن الواقع الترابي الذي يعيش فيه , وفي ذلك راحة نفسية وروحية ويقينية بأنه سينتصر على إرادة التراب التي تتحين الفرصة لإفتراسه.

وأصيبت الأمة بنكبات قاسية بسبب إقحام العقل في ميادين النصوص , مما نجم عنه تفاعلات مأساوية ودمارات وإنشطارات وتحولات فادحة الخسران , أوقعتها في حفر خانقة وكبلتها بالويلات الجسام.

إن منهج إقحام العقل بما لا يصح ويصلح , أدى إلى إنشاء الأصوليات وتعزيز الدوغماتيات التي تحتكر الحقيقة المطلقة وتنسف ما هو نسبي ومحكوم بإرادة الدوران.

فهل لنا أن نحترم أوهام بعضنا , ونتفاعل وفقا لمعايير بناء الصالح المشترك والعمل النافع لجميعنا؟!!

سادسا: الهمجية البشرية!!

كنت أتحدث في محاضرة عن تأريخ الطب وجذب إنتباهي ما رأيته من دهشة غامرة على وجوه الحاضرين , وكأنهم يستفيقون من غفلة وحلم بعيد , وتزاحم العديد منهم حولي بعد المحاضرة يستغربون ما ذكرت وكأنه خيال وليس حقيقة!!

فنحن نعيش في زمن يختلف عما سبقه ولا يمكن مقارنته بأي زمن مرّ على البشرية , بل أنه زمن قائم بذاته وكأنه لا يمت بصلة لأي زمان أو مكان!!

كيف يكون هذا القول معقولا؟

سألت الحاضرين عن عمر العلاجات الطبية الحديثة , فتسمر أكثرهم وما عرف الجواب!!

وغاب عن أذهانهم أن أول مضاد حيوي هو البنسلين الذي إنطلق قبل سبعة عقود , وبعده توالت المضادات الحيوية بأنواعها , فقبله لم يكن عند البشر غير مادة السلفا كوندين وأخواتها , وما ورثته من الطب الشعبي والعشبي عبر العصور.

فالبشرية إنطلقت بمشوارها الحضاري , الذي قطعت شوطا كبيرا منه , منذ بدايات النصف الثاني من القرن العشرين , أما قبل ذلك التأريخ فأنها كانت تعيش في عصور همجية مدثرة بالجهل والأمية والعدوانية الشرسة المدمرة , وتتطاحن بالحروب وتبيدها الأوبئة والأمراض والعاديات الطبيعية.

البشرية أمضت عمرها الطويل بهمجية مروعة بكل ما تعنيه كلمة همجية , وبتوحشية قاسية , وما عرفت الرحمة والمحبة والإنسانية وروح التسامح والود والتفاعل الإيجابي بينها , بل السائد هو العدوان والإمعان في شراسة السلوك والإمتهان بأنواعه وصنوفه النكراء.

البشرية أخذت تعي المعنى الجديد للحياة قبل عقود , ودخلت في عصر العلم والمعارف والإعتماد على العقل قبل قرن أو يزيد بقليل , فما مضى كان ظلاما دامسا وتوحشا فتاكا , وتفاعلات دامية صاخبة لا ترحم , توجتها بحربين هائلتين في النصف الأول من القرن العشرين , ذهب بسببهما عشرات الملايين , ودمرت المدن الأوربية وأرتكبت الفظائع البشعة بحق الإنسانية.

فالسائد في السلوك البشري هو التوحشية والعدوانية , والغريب هو الرحمة والتسامح والتعاون والالفة والمحبة والأخوة والعمل المشترك.

ويبدو أن البشرية ستحتاج إلى قرون عديدة لكي تتحرر مما إنطمر فيها من الوحشية والعدوانية , فلا يمكنها أن تتخلص من سلوك متواصل متكرر لمئات الآلاف من السنين ببضعة عقود , لكنها قد تمكنت من الإقدام على خطوات ذات قيمة ومعنى وحضور في مسيرة الحياة.

فبرغم الحروب والصراعات القائمة لكنها لا تقاس بما عاشته البشرية في القرون السابقات , بل لا يمكن مقارنتها بما جرى في النصف الأول من القرن العشرين.

ذلك أن البشرية تمتلك أسلحة فتاكة وخارقة التدمير , لكنها تتحكم بها ولم تستخدمها إلا مرتين قبل سبعة عقود , ومنذ ذلك التأريخ وهي كاظمة لغيضها ومتحكمة بسلوكها وتجتهد في منعه من الإنفلات.

البشرية أمضت عمرها الطويل بهمجية مروعة بكل ما تعنيه كلمة همجية , وبتوحشية قاسية , وما عرفت الرحمة والمحبة والإنسانية وروح التسامح والود والتفاعل الإيجابي بينها , بل السائد هو العدوان والإمعان في شراسة السلوك والإمتهان بأنواعه وصنوفه النكراء

البشرية أخذت تعي المعنى الجديد للحياة قبل عقود , ودخلت في عصر العلم والمعارف والإعتماد على العقل قبل قرن أو يزيد بقليل , فما مضى كان ظلاما دامسا وتوحشا فتاكا , وتفاعلات دامية صاخبة لا ترحم

السائد في السلوك البشري هو التوحشية والعدوانية , والغريب هو الرحمة والتسامح والتعاون والالفة والمحبة والأخوة والعمل المشترك

الخلاصة أننا نعيش بدايات عصر جديد لا زالت البشرية تتلمس خطواتها فيه , لكنها ستتمكن بعد حين من رؤية سكة مسيرها ومحطات أهدافها , ومعنى أن تكون في مركبة واحدة تأخذها إلى مصير واحد , وذلك ليس ببعيد , وسيولد من رحم القرون الآتيات!!

يبدو أن العقل قد سبق بأشواط شاسعة الإستعداد النفسي والسلوكي والتطويع الدماغي للبشر , فبسبب مخترعاته وضع البشرية في محنة التكيف والتطور السريع المناهض لطبائع الأمور , مما أدّى لتداعيات ذات نتائج مخيبة للآمال

كما أنها أحرزت تقدما سريعا في مجالات لم تخطر على بال الأجيال , فصار التواصل ما بين الناس في جميع بقاع الأرض ممكنا وسريعا , وتفاعلت الرؤى والتصورات وإنطلقت المشاريع الساعية لبناء مجتمع إنساني عولمي كوكبي المواصفات.

ومع تلك الإنجازات الفائقة الأصيلة , فالبشرية ستظهر فيها سلوكيات متوحشة هنا وهناك , وتفاعلات عدوانية قاسية , لكنها ستنتهي حتما وتتلاشى أمام تيار الإيجابية الهادرة في الأوطان.

والخلاصة أننا نعيش بدايات عصر جديد لا زالت البشرية تتلمس خطواتها فيه , لكنها ستتمكن بعد حين من رؤية سكة مسيرها ومحطات أهدافها , ومعنى أن تكون في مركبة واحدة تأخذها إلى مصير واحد , وذلك ليس ببعيد , وسيولد من رحم القرون الآتيات!!

سابعا: البشرية تجني على نفسها!!

كل مُختَرَعٍ يُسخَّر للتعبير عن الشرور الكامنة في البشر , ولا يوجد مُخترَع مهما كان نوعه يمكن تبرئته من المشاركة بميدان التفاعلات السيئة العاصفة في الحياة , وقد توصلت البشرية إلى ذروة المخترعات الشديدة الخطورة والقدرات الشاملة على الإمحاق والفناء.

ويبدو أن العقل قد سبق بأشواط شاسعة الإستعداد النفسي والسلوكي والتطويع الدماغي للبشر , فبسبب مخترعاته وضع البشرية في محنة التكيف والتطور السريع المناهض لطبائع الأمور , مما أدّى لتداعيات ذات نتائج مخيبة للآمال والتطلعات والأهداف المرجوة من المخترعات.

وقد جنت البشرية على نفسها بإختراعها لوسائل التواصل الإجتماعي السريعة المعاصرة , التي أصبحت ذات تأثير سلبي وتدميري على الواقع البشري , لقدرتها الفعالة على تدجين وتسخير المخلوقات الآدمية لكي تتحول إلى آلة صماء وجهاز مستعبَّد بالفكرة المهيمنة على وعيه .

فالنفوس وما في البشر من طاقات ومطمورات غرائزية غير مؤهلة للتعامل مع هذه الوسائل والوسائط بأخلاق وإنسانية وسلام , وإنما أخذتها أمّارات السوء التي فيها نحو أهداف وغايات لا تخطر على بال الشياطين والوحوش والآثمين على مرّ العصور.

ولهذا أصبح من الواجب والضرورات القصوى أن يُعاد النظر بهذا الطاعون التواصلي , الذي سيأخذ البشرية إلى متاهات الويلات والحروب التدميرية المروعة التي ما عهدتها من قبل.

فليس من السلام أن ينفلت البشر ويتواصل بهذا الجنون وبلغة الشرور والبغضاء والكراهية اللازمة لتحقيق ما لا تحمد عقباه.

فالبشرية على حافة المخاطر الكبرى المدمرة بسبب ما أتيح لها من وسائل التواصل السريع والتأثير القوي في الآخرين , وصيدهم كما تُصاد الطيور والغزلان في غاب الوجود الملتهب المحتشد بالوعيد.

بشرية من طبعها أن تسخّر المستجدات لتحقيق إرادة الشرور الكامنة فيها , ولا يمكنها أن تتعلم سلوكا آخر في مسيرتها , فما أن أخترعت الطائرة حتى تم إستخدامها للقتل والدمار أكثر من إستخدامها للنقل والسفر.

وما تعيشه البشرية اليوم من تحولات سريعة ومخاطر جسيمة , إنما بسبب المخترعات المتواكبة , وما تتسبب به من تواصلات بين بشر الدنيا في كل مكان , فالتفاعل الإفتراضي المتخيل يتفوق على التفاعل البشري المباشر , الذي بدأ يفقد قيمته ودوره ومهاراته , ويُستعاض عنه بالتعامل ما بين المفترضات والمتصورات عن الآخر وما يتصل به من العناصر والمفردات.

وتلك محنة أرضية ستؤدي إلى حرب كونية حتمية!!

ثامنا: الأوطان إرادات بشرية!!

أرض الله الواسعة لم يكن فيها دول ولا أوطان , وإنما مجتمعات بشرية تكاثرت وتوزعت في ربوعها ,

والتطلعات والأهداف المرجوة من المخترعات

قد جنت البشرية على نفسها بإختراعها لوسائل التواصل الإجتماعي السريعة المعاصرة , التي أصبحت ذات تأثير سلبي وتدميري على الواقع البشري , لقدرتها الفعالة على تدجين وتسخير المخلوقات الآدمية لكي تتحول إلى آلة صماء وجهاز مستعبَّد بالفكرة المهيمنة على وعيه

أصبح من الواجب والضرورات القصوى أن يُعاد النظر بهذا الطاعون التواصلي , الذي سيأخذ البشرية إلى متاهات الويلات والحروب التدميرية المروعة التي ما عهدتها من قبل

البشرية على حافة المخاطر الكبرى المدمرة بسبب ما أتيح لها من وسائل التواصل السريع والتأثير القوي في الآخرين , وصيدهم كما تُصاد الطيور والغزلان في غاب الوجود الملتهب المحتشد بالوعيد

الدولة أو الوطن كالبيت الذي يحمي مَن فيه , ولا يُعرف لماذا تثار ألف علامة إستفهام حول تأسيس وإنشاء الدول العربية , وكأنها ليست كذلك ولا هي بأوطان

العلة ليست في الدول والأوطان , وإنما في العمل المتواصل على تغييب الإرادة الوطنية وتفتيتها , وتحويل البشر إلى مجاميع

وأسست لوجودها الكياني الإجتماعي , وتوطنت بقعة ما وإلتزمتها أو وضعت يدها عليها باللزمة , كما تفعل الأسود والقرود وباقي الحيوانات , التي تتخذ لها أذوادا ومواضع للعيش والبقاء.

وأوطان الأرض ودولها وبلا إستثناء تأسست وفقا لإرادات بشرية صرفة , فلم تكن موجودة قبل وجود الإرادة الجماعية المتفاعلة , وهي خيارات عملت على تأكيدها مجموعات وجدت أن مصالحها المشتركة تقتضي أن يكون لها كيان وطني , ودولة ذات حدود تحميها وتحافظ عليها وتصونها.

فالدولة أو الوطن كالبيت الذي يحمي مَن فيه , ولا يُعرف لماذا تثار ألف علامة إستفهام حول تأسيس وإنشاء الدول العربية , وكأنها ليست كذلك ولا هي بأوطان.

فالعلة ليست في الدول والأوطان , وإنما في العمل المتواصل على تغييب الإرادة الوطنية وتفتيتها , وتحويل البشر إلى مجاميع وفئات تعادي بعضها وتسعى لمحق وجودها , ومصادرة هويتها الجامعة وبذلك تنتفي الحاجة لدولة ووطن , ويكون التهجير مصيرها والتيهان في مجتمعات الدنيا نهايتها , لتصل إلى حيث يتحقق التذويب والإنتفاء الصارم.

ويبدو أن هذه السياسية التي تهدف لخلع مفهوم الوطن والدولة من وعي الناس , هي التي يتم تسويقها لكي يتحقق مصادرة البشر , وما يمت بصلة إليهم من الحضارة والتراث والثروات , لأن وطنهم ليس بوطن ودولتهم ليست بدولة , وأنهم فئات ومجاميع بلا عرين أو عش يكفل لهم العيش والبقاء والنماء.

وتلك حرب رهيبة يتأكد شنها على العرب وبواسطة العرب أنفسهم , الذين يتوهمون بأنهم يفكرون ويكتبون ويبدعون , وما هم إلا يصوّبون فوهات أقلامهم نحو ذاتهم وموضوعهم , وكأنهم في غياهب الضلال والتبهيم يتفيئون.

فلابد من وعي حقيقة الدولة والوطن , والعمل على تأكيد أهميتهما ودورهما في الحفاظ على القوة والحياة الحرة العزيزة الصالحة.

فلماذا ننفي وجود دولنا وأوطاننا , وما تساءلنا كيف أقيمت الدول والأوطان الأخرى؟

وهل من يقظة ووعي وطني وإدراك مصيري؟!!

وفئات تعادي بعضها وتسعى لمحق وجودها , ومصادرة هويتها الجامعة وبذلك تنتفي الحاجة لدولة ووطن

أن هذه السياسية التي تهدف لخلع مفهوم الوطن والدولة من وعي الناس , هي التي يتم تسويقها لكي يتحقق مصادرة البشر , وما يمت بصلة إليهم من الحضارة والتراث والثروات

لابد من وعي حقيقة الدولة والوطن , والعمل على تأكيد أهميتهما ودورهما في الحفاظ على القوة والحياة الحرة العزيزة الصالحة

إرتباط كامل النص:
http://www.arabpsynet.com/Samarrai/DocSamarraiWaMaSawahaa374-260924.pdf

****** ******* ******

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي
http://www.arabpsynet.com/

المتجر الالكتروني
http://www.arabpsyfound.com

الكتاب السنوي 2023 لـ " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار الرابع عشر)

الشبكة تدخل عامها 23 من التأسيس و 21 على الويب

23 عاما من الكدح... 21 عاما من المنجزات

(التأسيس: 2000/01/01 - على الويب: 2003/06/13)
http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf

كتاب "حصاد النشاط العلمي لمؤسسة العلوم النفسية العربية للعام 2022

التحميل من الموقع العلمي
http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet-AlHassad2022.pdf